ومن الشعر الحياة

(قصيدة السجن الجزائرية في معركة الحرية)

د. سكينة قدور

جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

واكب الشعر الجزائري الأحداث التي مرت بها البلاد في كل مراحلها ولا سيما محنة الاستعمار الذي جثم على الصدور قرنا وربع قرن من الزمان كاد يطمس فيها معالم انتماء الشعب الحضارية. وساهم الشعر إلى جانب فنون أدبية أخرى في عملية حفظ الذات من الذوبان في ثقافة المستعمر ولغته وتقاليده، وكان بمثابة الديوان الذي حفظ لنا صورا حية من تلك المرحلة العصيبة من تاريخ الجزائر، ولنذكر من ذلك الشاعر والقائد الفذّ الأمير عبد القادر الذي خاضها ثورة ضد المستعمر بكل لغاتها، لغة السلاح حينا ولغة القول آخر ولغة السياسة والحشد. فإلى جانب تدوين الشعر وتخليده لما عانته يد الاستعمار في هذا الوطن كان (الشعر) أداة من أدوات النهوض بالشعب ووسيلة من وسائل إنهاض الهمم وإمداد الحدث الجزائري "ثورة التحرير الكبرى" بما تتطلبه من حماس وثائرين وبكل ما تحتاج إليه من لهيب الكلمات التي لا يقل صداها عن

صدى القنابل والبنادق، وقديما قال الشاعر العربي (الأخطل) "والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر".

وسنقف في هذه الدراسة عند جانب من جوانب تلك المشاركة الوطنية الفعالة للشعر الجزائري ومساهمته في صناعة الحدث كسائر المواهب الأخرى والحرف. إنه تلك القصائد المهربة من وراء القضبان والأسلاك الشائكة والحدود المكهربة ومن أعين العدوالتي لا تنام أبدًا، ولكن القصائد المهربة إلى المجاهدين في مواطن النار، وإلى كافة أبناء الشعب الجزائري في كل مكان، تصل إليهم معبقة بعبير التضحية والوفاء فيتلقفونها، يترنمون بها ويرفعون الهمم بكلماتها النارية غالبا، بينما يقبع ناظموها في غيابات العذاب، وكأنهم بنظمها، وبتسريبها ينتزعون من قعر الموت، من عمق السجن ، من سلاسله وظلماته حياة مهربة إلى فضاءات الحرية. نذكر من ذلك نشيد جيش التحرير الذي كتبه مفدي زكرياء بسجن البرواقية بلغة شعبية قريبة من الفصحى وتلقفه المجاهدون يحفظونه ويرددونه في ساحات القتال[1].

هذي دمانا الغاليه دفّاقة
وعلى الجبال علامنا خفاقه
وللجهاد ارواحنا سبّاقه
جيش التحرير احنا... ماناش فلاّقه
يا فرنسا لا تفيدك اليوم جيوشك
ولا تفكك من ايدينا جحوشك
يا فرانسا وين طغاوتك وفشوشك
يا ظالمه امسكناك من الخنّاقه
جيش التحرير احنا ما ناش فلاّقه

[1] - مفدي زكريا، اللهب المقدس،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1991 -79.

من منا يسمع كلمة سجن أو معتقل أو محتشد ومرادفاتها التي عرفت بها محاشر المستعمر ولا تضطرب أنفاسه وتتسارع دقات قلبه ولا تتراءى أمام ناظريه خيالات وصور شتى تجسد عذابات نزلائها وتفنن زبانية المستعمر في ابتكار أساليب وألوان لا تخطر على بال، من عذابات جسدية وما أهونها أمام العذاب النفسي غير المتوقع.

ولكن تلاميذ مدرسة التحرير الجزائرية ارتفعوا فوق كل أصناف العذاب، صانعين لأنفسهم عوالم روحية سامية لا تكدر صفوها ظلماء السجن ولا تحدّ فضاءاتها قضبانه، ولا تطال سماءها سياطه وكلابه وجلاّدوه. ومنهم الشعراء الذين بنوا أبراجا تجاوزوا بها الداء والأعداء وتحدّوا آلة العذاب الفرنسية، مستعذبين في سبيل الوطن العذاب، وهل يستعذب العذاب إلاّ فداء للأوطان كما يقول الصافي النجفي:

ولمـــا رأيت الذنـــب خـــدمـة مـوطني

حلا لي السجن حتى خلته جنة الخلد.[1]

فهذا الشاعر الجزائري حسن حموتن يبدي كامل استعداده لتحمل ما أعدّته يد الموت والدمار،ينصحه أحد الأصدقاء بالفرار إلى المغرب أو تونس خوفا عليه من مواقفه السياسية، ولكنه يأبى إلاّ أن يقاسم شعبه ويتقلب معه على جمر اللظى ويشرب معه من كأس الموت والسجن ، وقد وقع المحذور واقتيد الشاعر إلى المعتقل، ومن هناك من قعر الزنزانة يسجل قصيدة رافضة يصف فيها معاناته ومعاناة أمثاله من أحرار الفكر والقلب والضمير عندما ترغمهم زبانية

[1] - الصافي النجفي، حصاد السجن، دار الكشاف للنشر و الطباعة والتوزيع،بيروت،1951- ص111.

السجن على الوقوف لتحية العلم الفرنسي[1]. ومن قعر زنزانات العذاب الرهيبة ومن خلف قضبانها وأبوابها الحديدية ومن وحشتها ورهبتها وغربتها ولياليها الطويلة وأيامها الثقيلة هرّب إلينا الشعراء صورا رائعة مفعمة بالحياة، ولنقل أنهم انتزعوا من صدر الصخر وافتكوا من رحم الموت الحياة- إذ أقل ما يوحي به السجن احتباس الحياة وانقطاعها- وأوصلوا إلى العالم الخارجي قصائدهم على ورق السجائر وقصاصات الأوراق أو أي شيء آخر يصلح للكتابة، وجاءتنا مدونة بأقلام الرصاص حينا وبكل ما يمكنه أن يخط حرفا، بل ودوّن أحد أبطال النضال إحدى قصائده بدمائه وأرسلها هدية إلى الحكومة الجزائرية عربون وفاء، وهي نشيد "عشت يا علم لمفدي زكرياء"[2] الذي كتب تحته "التحية الرسمية للعلم الجزائري"وقد ارتأينا ذكر أغلب مقاطعه ليتأمل القارىء مقدار الدم- الحبر-المبذول:

هيا... هيا قفوا/ وارفعوا العلم.../ وانشدوا، واهتفوا/ واعزفوا النغم.../ اقصفوا المدافع... تسمع الأمم:/ رسالة العلم... اشرف رفيعا في الحمى واخفق عزيزا مكرما وأشرق على نهر الدما سلّما... للسما...يا علم...علم الجزائر/عشت يا علم /أنت وحي الشهدا.../ أنت للجيل غدا...

أبيضه أخلاقنا/ أخضره أوطاننا / أحمره دماؤنا.... عروقنا...علم الجزائر دمت يا علم.../ كفاحنا، نضالنا، جهادنا، استقلالنا، أرواحنا، أموالنا، أكبادنا في سبيل العلم.../ علم الجزائر... عشت يا علم...

وفي سجن بربروس يعزل مفدي زكريا أياما في زنزانة مظلمة وتأتيه خواطر الشعر فيحفظ قصيدة "زنزانة العذاب رقم 73 " بيتا بيتا عن ظهر قلب لاستحالة

---

[1] - صلاح مؤيد: الثورة في الأدب الجزائري، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ص68

[2] - مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص 75-76.

كتابتها في الظلام فخلدها بطريقة أخرى متحديا كل أساليب المستعمر وفنونه، وانتزعها من طي النسيان بحافظته. وهي الصورة التي جسدها الشاعر أحمد عروة في حديثه عن الجهاد النفسي الكبير الذي تجشمه الشعب كله لانتزاع الحياة من مخالب الموت؛ يقول:

من دماء القلوب الغاضبات
من عناء العيون الساهرات
من عذاب القيود والسجون المظلمات
من شباب تصدى للعدا
من صدور تعج بالفدا وبالردى
قد نزعنا من الموت الحياة[1].

لأن الأرواح الحرة الطليقة لا تبالي بالقيود، وهل يولد التاريخ وتبعث البطولات إلاّ من قعر القهر والحديد كما يقول مالك حداد: "التاريخ غاص بالقيود، إنه يولد في الحديد"[2].

وسنقف عند بعض صور الحياة التي انتزعها الشعراء من ظلمات السجن وهرّبوها إلى عوالم الحرية وتحدوا بها عيون المستعمر وجواسيسه وعدته وعتاده وجدرانه وقضبانه.

الشاعر السجين والهروب النفسي إلى الحرية:

يبحث السجين دائما عن منافذ تخفف من حدّة ما يحيط به من قيود وممنوعات، فإن لم يجد الوسائل المادية الملموسة التي تفتح له نافذة حقيقية ليطّل منها على الآخر صنعها بنفسه في رحاب خياله وامتطاها إلى خارج حدود

---

[1] - أحمد عروة،ذكرى وبشرى،مكتبة الشركة الجزائرية،منشورات دار مكتبة الحياة،بيروت، ص11.

[2] - نزيه أبو نضال، أدب السجون، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ص25.

السجن الضيقة. فهذا الشيخ أحمد سحنون يرى من نافذة سجنه شجرة حرة طليقة يداعبها النسيم وتداعبها أشعة الشمس كل صباح، فيدعو لها بالسلامة من آلام الغربة التي يتجرعها:

شجـــرة ناضـــــرة مخضرة إلى النفوس تبعث المسرّه
قامت حيال غرفتي في المعتقل مختالة كأنها طيف الأمل
سلمت يا شجـــرتي من الغير ولا عراك سقم أو كـــدر
ولا رُميـــت بشقـــاء الغـــربة فقد لقيتُ منه كل كربة[1].

وهذا مفدي زكريا يقع في سجنه طريح الفراش، فينقل إلى إحدى غرف المستشفى لا يغادرها، وهناك وجد مسليا يخفف عنه لوعة الشوق وآلام الوحدة والعزلة والسقم، قطة أسماها الشاعر في غربته ووحدته "عزيزة" وراح يناجيها مناجاة العاشق الولهان:

نامي عزيزة نامي كـــم لذّة في المنـــام
فأنت خير أنيس في حيرتي واهتمامي
وأنت خير صديق يـــرعى عهود ذمامي
نامي عزيزة نامي
لا السر عندك يفشى ولا حديث الغرام
لا الغدر عندك يلفى ولا خداع الأنام
نامي عزيزة نامي
رفيقتي في شقاتي حليفتي في سقامي
قسيمتي في نعيمي شريكتي في طعامي
نامي عزيزة نامي
روحت في السجن بالي وكنت نور ظلامي
فأنت فوق البرايا تستوجبين احترامي

[1] - أحمد سحنون، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، ص 70.

نامي عزيزة نامي
هيجت جرح فؤادي أذكيت نار هيامي
ذكرتني في حبيبي ومنيتي ومرامي
نامي عزيزة نامي[1]

وهناك من الشعراء من تخفف من وطأة السجن بالهروب عن طريق الحلم إلى دنيا الحرية المنشودة، ليصبح للحلم قيمة عند السجين، وهل تكون أحلام السعادة إلاّ في الأكواخ والمستشفيات والسجون –كما يقول جان كازوروف[2]–.

وإذ ينفلت مفدي زكريا عن أعين الحراس التي لا تنام، فإنه يسخر منها ومن قيودها الواهية وإن حبست جسمه، فإنها لا تستطيع حبس روحه المحلقة الهازئة بالسجان ، المنسابة في ملكوت الله، حيث تتساوى عندها كل أصناف العذاب مادامت جميعها لا تقوى على استنطاق الشاعر واقتلاع المعلومات عن أسرار التنظيمات الثورية، يقول:

سيان عندي مفتوح ومنغلق يا سجن بابك أم شدت به الحلق
أم السياط بها الجلاد يلهبني أم خازن النار، يكويني فأصطفق
والحوض حوض وإن شتى منابعه أُلقى إلى القعر أم أسقى فأنشرق
سرّي عظيم،فلا التعذيب يسمح لي نطقا وربّ ضعاف دون ذا نطقوا
يا سجن،ماأنت؟لا أخشاك تعرفني من يحذُق البحر، لا يُجدِقْ به الغرق
أنام ملء عيوني، غبطة ورضى على صياصيك، لا همّ ولا قلق
والروح تهزأ بالسجان ساخرة هيهـــــات يدركها، أيان تنزلق

---

[1] – محمد ناصر، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة،المطبعة العربية غرداية،1984، ص185، 186.

[2] – جان كازونوف، سيكولوجية أسير الحرب، ترجمة عدنان سبعي وخليل شطا،دار دمشق للطباعة والنشر، دار لبنان،ط1،1983، ص 15.

تنساب في ملكوت الله سابحة لا الفجر،إن لاح يفشيها ولا الغسق[1].

ويطلق الشاعر في هذه الرائعة العنان لروحه تتخير مواطن انسيابها وسبحاتها، فتعرج إلى الحبيبة وتعود إليه محملة بعبق ينتشر شذاه في ربوع السجن فيهيج في خياله من الذكريات الجميلة، ولكن شاعرنا المشرب وطنية حتى النخاع لا يستطيع أن يتفيأ ظلال الحب وما يبعثه من مشاعر بعيدا عن معشوقته الأولى وسالبة لبه "الجزائر"، وما تعلق قلبه بامرأة إلا لأنها قبس من نور الجزائر الفياض وإلا لاحتوائها بعض أوصاف الجزائر التي ساوى حبها في قلبه حبّ الله، وهكذا يختلط الحب عنده بعاطفة أخرى أسمى منه وأكبر وهي حبّ الأوطان الذي يخرج الشاعر من ذكريات القلب وسويعات أفراحه إلى محاججة المستعمر ومناقشته وتفنيد مزاعمه وفضح محاولاته اليائسة لإفشال الثورة أو إيقاف مسيرتها الجارفة، دون أن ينسى أنه سجين الجسد بين حيطان السجن وأبوابه الموصدة، فيلتفت إليه مهددا إن هو أفلته (يريد السجن) ليخرجنّ إلى اختراق خطوط النار المزروعة في ربوع الوطن:

يا لائمي في هواها إنها قبس، من الجزائر ، والأمثال تنطبق
بنت الجزائر..أهوى فيك طلعتها فكل ما فيك من أوصافها خُلق
أحبها مثل حبّ الله أعبدها آمنت بالله لا كفر ولا نزق
جيش إلى النصر تحدوه ملائكة مسوّمون بموج الموت يندفق
..هذا الذي يا فرنسا تهدفين له جهلا، أما في فرنسا حازم حذق؟
وضع السلاح أحاديث ملفقة خرافة صاغها للكيد مختلق
لا تشغلينا بأثواب وأرغفة أهدافنا المجد ليس الخبزُ والخرق
حقوقنا بدم الأحرار نكتبها لا الحبر أصبح يغنينا ولا الورق

---

[1] - مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص20،21.

وأنت يا سجن لو أفلتَّ ناصيتي رأيتني لخطوط النار أحترق[1].

وإذا أرسل مفدي زكريا روحه إلى الحبيبة بصورتيها (الجزائر والحبيبة) فعادت إليه بعبقهما معا تعطر به المكان الموحش بصمته وظلامه ، فإن الشيخ أحمد سحنون يتسرب إلى مسامعه والناس نيام شدو عصفورة فيحرك فيه الحنين إلى عصفورته الأخرى التي خلفها هناك "ابنته فوزية"، ويحملها إن هي زارت موطنه سلامه وأشواقه إلى البنية :

عصفورة مرّت على غرفتي تشدو بلحن ساحر النبرة
والناس صرعى النوم لم يفطنوا كأنهم -بالنوم- في سكرة
مرت تغني فاستثارت جوى قلبي واشواقي لعصفورتي
عصفورة تشبهها روعة في الوثب والتغريد والصورة
عصفورتي إن جئت أرض الحمى وشممت بيتا قد حوى صبيتي!

كوني رسولا صادقا للتي من بينهم تدعى بفوزية
قولي لها لا تهلكي بالأسى ولا يَذُبْ قلبك بالحسرة
وابتسمي -كالزهر- لا تعبسي واحتفلي بالعيد في غبطة
أبوك ما زال حليف الوفا حاشاه أن ينساك في الغربة
بوجهك السابح في طهره يحلم في النوم وفي اليقظة[2].

وللشعراء والأدباء وسائل أخرى كثيرة يكسرون بها القيود وينفلتون بأجنحتها إلى عوالم الحرية المنشودة التي يستشعرونها برغم الحديد وزبانيته. وهذا الشاعر محمد الشبوكي يطل من معتقل بوسوي القائم على هضبة تحيط بها أشجار متتابعة في انتظام عجيب، ويرى باقة من النجوم السابحة فتتخيلها

[1] - مفدي زكريا،اللهب المقدس، ص 26،27.
[2]- أحمد سحنون،الديوان ، ص 69،70.

روحه المتلهفة للانطلاق قاطرة إبل تسري ليلا وتشق طريقها نحو الجنوب، إلى حيث الأهل والأحباب، قافلة ترعى دربها وترمقها نجمة أسماها الشاعر "نجمة القافلة"، وينسيه جمال المشهد عزلته القاتلة وعذابه، ويحلو له النشيد:

تراءيت في الأفق لي حافله ... بنورك يا نجمة القافله
فهل أنت للقلب ثغر الأماني ... تبسم في عزلتي القاحله
أراك فترقص لي الذكريات ... وتصبح نفسي له ناهله
تجوبين آفاقـــك الواسعا ... ت بين الكواكب كالذاهله[1].

تحويل السجون والمعتقلات إلى نواد أدبية:

لم تعرف السجون تحت قيد الاحتلال غليانا واكتظاظا كالذي عرفته إبّان ثورة التحرير الكبرى، إذ عجزت فرنسا عن كبح جماح هذا المارد الجبار الزاحف على نعمها وامتيازاتها، فراحت تزج فيها بكل من تظنه يخدم المعركة ولو من بعيد ظنّا منها أنها بذلك تخيف الشعب أو تردعه أو تعزل الثورة عنه، فكان أن لم تعد تجد أماكن لاحتوائهم جميعا، ولم تعد تجد الزنزانات الفردية أو حتى الجماعية ،فراحت تحشرهم بالعشرات في المحتشدات: وكانت كمن يهدم بيته بنفسه، فقد أتاحت للثورة وللمجتمع في السجن ما لم يتح لهما خارجه، وتحوّلت المعاقل والمحتشدات والسجون إلى مدارس تزود المجتمع والثورة وتمدّ سيلها الجارف بحمم تدمغ العدو.

عرفت السجون والمعتقلات والمحتشدات التي راح المستعمر يضيف إليها في كل يوم مأوى جديدا، حياة جديدة تتناسب وطبيعة المقام وترتفع في كثير من الأحيان عن معوقاته وموانعه، فكثيرة هي المنتديات الفكرية والثقافية التي

---

[1] - محمد الشبوكي، الديوان، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1994، ص153 وانظر ص169 "الهامة والبلبل".

احتضنتها ملاً للفراغ وتحديا لأجهزة القمع، وكثيرون هم الذين تخرجوا منها بمواهب وثقافات وحرف. نذكر من تلك المنتديات ما كان للمناضل التركي الشهير ناظم حكمت من نشاطات نضالية خلف القضبان[1]. وعرفت بعض السجون مجلات يعدها نزلاؤها أنفسهم يحللون أوضاعهم وينشرون إبداعاتهم، وجدت طريقها إلى المطبعة وصنعت أقلاما وكشفت عن مواهب تفتقت من طي العدم[2]. وألف بعض النزلاء دراسات اجتماعية حول مجتمع السجين نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر "عالم السدود والقيود" لعباس محمود العقاد و"المجتمع المريض" لنجيب الكيلاني... وكثيرا ما تنبه زبانية العذاب إلى خطورة بعض الشخصيات الثورية فعزلوها في زنزانات فردية.

أما في الجزائر فقد أتاحت ظروف الاعتقال فرصا للالتقاء أمام أعين السجانين لم تكن لتتاح خارج السجن، فحوّلوا جحيمه إلى جنان وارفة الظلال، تحضر فيها الندوات والمخططات والحفلات، ويحضر فيها الشعر والمساجلات الشعرية، وتقوم بين قاطنيها علاقات حميمة، بل وتمتد جسورها إلى بعض السجّانين الذين كثيرا ما تحوّلوا إلى رسل لنقل ما يدور بالدّاخل المحرّم إلى الخارج المتلّهف لسماع الجديد، وأحيانا ينقلون الأخبار بين السجناء إذا تباعدت بهم الزنازين.

ومن صفحات تلك الحياة النابضة ما كان يتبادله الشعراء من تحيات شعرية تحمل معاني الإجلال والتقدير وتناقش قضايا الفكر والواقع المتردي وآفاق الوطن المُفدّى. فبينما كان مفدي زكريا (في الثلاثينات) يرسف خلف جدران

---

[1] - انظر: حنا مينه، ناظم حكمت ،دار الآداب، بيروت ، ط2 ،1980، ص107،117.

[2] - انظر محمد محمود الغرباوي ، الشعر في سجون مصر1882،1980،جامعة الأزهر، الزقازيق، 1413،1993، دكتوراه، الملحق .

"بربروس" العالية إذا بالرفاق الأخ كحال (الشهيد)-الأخ حيواني الأخضر (غاندي الشباب) -الأخ عبد الله فيلالي والأخ الأديب الظريف محمد قنانش الذي كان يخاطبهم بلهجته التلمسانية "أبضونا هذا الصباح على الساعة السادسة في بيت مفدي زكريا"، وفي هذه الحادثة يسحب مفدي قلم الرصاص ويكتب مرتجلا قطعة في الترحيب بالضيوف الجدد ويرسلها -كما يقول- "مع أحد سدنة بربروس الأمناء المخلصين "[1]. وهو إذ يتحدث عن قلم الرصاص لأن غيره كان ممنوعا على السجناء[2]، كما يشير إلى المكسب العظيم والحياة المنتزعة من قلب القهر وعمق الموت، والمتمثلة في تحوّل ذلك السادن من آلة معاقبة وعين مراقبة إلى يد مخلصة أمينة وهي الحال التي تتكرر مع مفدي زكريا في نقل جلّ أشعاره لأنه كان وحيدا منفردا في زنزانة العذاب بينما كانت تتدفق أشعاره خارج السجن وتنساب إلى أوساط الشعب وصفوف جيش التحرير الوطني انسيابا، بل وتساهم في التخطيط لفراره من السجن (مارس 1959)، فبعد أداء واجب الترحاب بالوافدين الجدد يصف ذلك الصرح الذي حضنت جدرانه وتاهت علوّا، وقام على أبوابه آلاف الشياطين، لكن تلك الأرواح الطاهرة التي حلت به غشته بالوقار وصيّرت ضيقه وقهره جنة وارفة وحولت قعر عذابه إلى محراب طهر. دون أن ينسى تحدّيه الدائم للمستعمر، إذ يشبّه نفسه خلف تلك الجدران التي تفنن المستعمر في إعلائها وتحصينها حتى شابهت ناطحات

---

[1] - يحي الشيخ صالح، أدب السجون والمنافي في الجزائرفي فترة الاحتلال الفرنسي 1830،1962، دكتوراه، جامعة الجزائر، 1993 ،126.

[2] - كان القلم الحبر ممنوعًا في فرنسا داخل السجون، انظر رسائل من السجن،أحمد طالب الإبراهيمي، ترجمة الصادق مازيغ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر والدار التونسية للنشر، 1983، ص 40.

السحاب وفاخرت صرح هامان وقام على حراستها آلاف المردة من جنود سليمان بالأسد الرابض في عرينه المتأهب لساعة الانقضاض، كل ذلك الصرح وكل ذلك الأمان أعدّ خصيصا لنزلائه المجاهدين المقدمين نفوسهم في سبيل سعادة أوطانهم، فليهنأوا في بربروس وليهنأوا بحب الجزائر الذي كلّفهم غاليا، يقول:

يناجيكم في السجن قلبي ووجداني ... قنانش، عبد الله، كحّال، حيواني
وأهدي إليكم من عريني تحيـــة ... أبث بها شوقي إليكم وتحنـــاني
لقد تاه منكم بربـــروس مفاخرا ... وقام على أبوابكم ألف شيطـــان
بيوت يغشيهـا الـــوقار كأنها ... وقد حملت أرواحكم خلد رضوان
وصرح يباهي الناطحـات مناعة ... ويفخر في الدنيا على صرح هامـان
يطوف على أسواره ألـف مارد ... على ألف جنّ من جنون سليمـان
أعـدّ جزاء للـذين تقدّمـوا ... ضحايا جهاد في سعادة أوطـان
ليهنكم في بربروس مراغـم ... ومـن عشق الحسناء فاز بإحسان[1]

وعلى الساعة الثانية –ربما من اليوم نفسه– يقذف إليه السجّان بورقة مكتوبة جاء فيها "ردّ التحية فرض" وهي قصيدة للشاعر والمجاهد المؤرخ محمد قنانش لا تختلف عن سابقتها في ارتفاعها وتعاليها بالسجين وتفاؤلها ونظرتها المشرقة للسجن ولمستقبل الشعب، ويذهب الشاعر مذهبا بلاغيا جميلا هو ما يعرف بحسن التعليل في تعليله أسباب نزوله والرفاق ضيوفا، إنه الشوق الذي حدا بهم إليه بعد أن سئموا البعد وحرائق الأشواق، ليجدوا السجن الذي ضاق على الجميع وضاق به الجميع وسمعوا عن ضيقه الشبيه بالقبر أفسح ميدان للأحرار وإن قام عليه شياطين غلاظ شداد فإن يد الرحمن هي التي جمعت بذلك العرين تلك الليوث، ويبادل أولئك القساورة من عرينهم رفيقهم التحية لأن ردّها فرض:

---

[1]– يحي الشيخ صالح ، أدب السجون والمنافي في الجزائر ،126.

قنانش عبد الله كحّال، حيواني يجيبون عن فرض السلام بإحسان
أتيناكم يحدو بنا الشوق نحوكم ونقطع أشواطا إليكم بتحنـان
سئمنا تكاليف الحياة لبعدكم وهل تبصر العينان من غير إنسان
سمعت بأن السجن كالقبر ضيق فألفيته للحرّ أفسح ميـدان
رأينا شياطين غلاظا كأنها بقايا جنود من رعايا سليمـان
تحييك من هذا العرين قساور بكم جمعتهم في الهوى يد رحمن
ثبات على الجلّى وسعي إلى العلى وبذل نفوس في محبة أوطـان
لئن كانت الآمال تجمع بيننا ونحن على بعد فها نحن جاران[1].

ولأحمد سحنون قصيدة مماثلة في الترحيب بزائر جديد لمعتقل بوسوى "الإخوان بلسم" يقول فيها[2]: اصدحي يا بلابل الأدواح لعناق القلوب و الأرواح

أنشدي لطلوع نجم من الصحب نشيد السرور والإرتياح
ينجلي الهم باجتماعي بإخواني كما ينجلي الدجى بالصباح
ليس كالأصدقاء في الخطب و الأيام بالأصدقاء جد شحاح
ظفرت راحتي بإخوان صدق و وفاء كانوا أداة نجاحي
بعد ما غاب (خالد) اسماعيل يأسو كآبتي و جراحي
وإذا كانت الحياة كفاحا فالصديق الكريم خير سلاحي

ولمحمد الشبوكي مداعبات لرفاق السجن صنفها في ديوانه تحت باب "الإخوانيات"، منها مداعبة لصديقه الشاعر (المرحوم) مصباح الحويلق في معتقل "بوسوي" أسماها "الشيخ المتصابي"[3]، ومنها قصيدة أهداها إلى رفيقه في المعتقل وأحد مشاركيه فيما كان يدور من مطالعات ومطارحات شعرية، هو الشاعر محمد الطاهر عباس، يقول فيها:

---

[1] - المرجع نفسه، 127.
[2] - أحمد سحنون،الديوان، ص 77.
[3] - محمد الشبوكي، الديوان، 186.

داعب جمال الشعر واعزف على ... مزاهـــر الحبّ ونايـاته
واستوح من قلبك أنشـــودة ... خالـــدة تعرف أناته
فالقلب يا شاعري معـــزف ... يسكب في الكون رنّاته
والشاعر الموهوب من لايـنـي ... ينغّم للدنيا رباباتـــه
ويرسل الألحان مشبوبـــة ... تكهرب الأفق بآهاته[1].

ويبدو أن الرفيق أخرس عن ردّ التحية إلى ما بعد الاستقلال حيث أرسل إلى صديقه بقطعة شعرية أبى إلاّ أن يخلّدها في ديوانه[2].

ومن مظاهر الحياة الأدبية التي بنى السجناء صرحها من قعر زنزانات العذاب ذلك النادي الأدبي الذي أسسه نزلاء سجن "بوسوي" وكان من أعضائه: الشاعر أحمد سحنون –الشاعر (المرحوم) أحمد عروة– الفنان الملحن هارون الرشيد وغيرهم، وكثيرا ما دفعوا بقصائدهم إلى الشاب الملحن وأخرجوها إلى رفاق السجن في ثوبها الغنائي الجديد، يقول الشيخ أحمد سحنون في تقديمه لديوان أحمد عروة "عرفت الدكتور عروة سنة 1957 وهي السنة التي بلغت فيها الثورة الجزائرية عنفوانها... بدأ هذا التعارف بلقاءات عابرة في محتشد "الرواقيين" ثم توثق وأصبح صداقة حينما نقلنا إلى محتشد الضاية "بوسوي" وعندما ألفنا الندوة الأدبية بهذا المعتقل كان ضمن أعضائها النشطين المنتخبين، وأكثر قصائد الديوان نظم أثناء هذه الفترة، إذ كنا ننظم القطع ثم نعطيها للملحن الملهم "هارون الرشيد" ليضع لها لحنا ثم نواجه به جمهور المعتقلين ضمن حفلة موسيقية..."[3]

---

[1] – المصدر نفسه، 188.

[2] – المصدر نفسه، 188.

[3] – أحمد عروة ، ديوان ذكرى وبشرى، ص6.

ولنا أن نقف عند كلمة منتخبين التي توحي بأبعاد هذا النادي الأدبي المتكامل، وأن نتخيل تلك الحياة النابضة خلف الأسوار الصامتة، ولننظر كيف التقت هذه الثلة من الشعراء والمفكرين والفنانين وأنطقت الصمت وفجرت السكون وتحولت بالسجناء إلى جمهور ذواق يسمع ويعجب ويهتف ويصفق، وفي تلك الأجواء الصافية سجل أحمد سحنون قصيدة في ذلك الطبيب الشاب (أحمد عروة) المداوي الجراح نهارا والقلوب بشعره ورسمه ليلا، إنه قطعة من الشعر لم تنظم بعد، يقول:

يأسو الجراح ويذهب الأتراحا ... ويحيل مأتم شعبه أفراحا
فبطبه يأسو الجراح فتشتفى ... وبشعره كم أطرب الأرواحا
وبرسمه يجلو القذى عـــن أعين ... شهدت لروعة فنه ألواحا
وبخلقه داوى النفوس من الأسى ... فغدت به مرضى النفوس صحاحا
له قلب قد حوته ضلوعه ... قد راض من نبل الخلال جماحا
يا عروة الشعر الحديث وآسيا ... مثل ابن سينا للأنام جراحًا
عش حارسا للمجد من متطفل ... فالمجد قد أعطى لك المفتاحا[1].

ومن صور الحياة التي انتزعها هؤلاء الرفاق من قلب الموت تلك الليالي الساهرة المختلسة عن عين الرقيب، نذكر منها ليلتان للشاعر محمد الشبوكي إحداهما قضاها الشاعر ورفاقه يتغنون بالأناشيد الوطنية وأهازيج الثورة في أعماق معتقل بوسوي:

من كان يغرب للّحون فإنني ... أمسيت منها في جوى وفتون
تهتاجني الأوتار في رنّاتها ... وتهزّ قلبي روعة التلحين
يا ليلة ما كنت أحسب أنني ... ألقى بها حفلا يثير شجوني
فالناي يبكي والكمنجة تشتكي ... والعود بين تأوه وأنـين
هذا يناغي عوده بمهارة ... قد أذكرتنا نغمة الحسّون

[1] - المصدر نفسه، ص7.

ومزامر سبحت بنارناته في جوّها المتدله المفتون
والدفّ قد لعبت بنا نبراته ببراعــة نذّت عن التبيين
وعلى الجميع وقارة وتخشع والكل بين تشوّق وحنين[1].

وأما الثانية فكانت "ليلة أندلسية" وكان بطلها الأخ "مصطفى لعسل" بأحاديثه عن رحلته إلى إسبانيا وما تزخر به من آثار إسلامية خالدة، وقد أثار حديثه فضول السامعين وحركت أشجانهم صولات الدهر وتقلباته، يقول:

لست أنساها حياتي ليلــة أنــدلسيــة
جمعتنا في دجاها يــد أقــدار خفية
"عسل" راح يساقينا كؤوسـا عسليــة
فروى ما قــد رأى مــن رسوم عربية
جــولة قــام بها في الربوع القرطبية
فسهرنا نتشــاكى صولة الدهر العتية[2].

وللشيخ أحمد سحنون قصيدة يهنئ بها نزيلا بعيد ميلاده يقول: "لقيني المجوّد البارع الأستاذ دليل مقران في مفتتح أكتوبر فقال لي: اليوم يوم ميلادي فكانت القطعة التالية من وحي هذه الكلمة"[3].

قال لي: اليوم يوم ميلادي فقلت أهلا بالوليــد الجديد
وإنمــا أنت رهــن أصفاد فإن تحررت فأنــت الوليد
قــال لي: الأيــام غدّارة تودعني في قفص من حديد
وكــل مــن يعلــن أفكاره فهو لدى الأيام خصم عنيد
قلت له:إن كنت شهم الفؤاد فمــا تبــالي أيّ باغ مريد
وليس كالإيمان أقوى عتــاد يبلغنــا مــن دهرنا ما نريد
قال لي: الإيمــان لا يقتنى لكنــه منحــة حــظ سعيد

[1] ، محمد الشبوكي، الديوان ،118.
[2] ، محمد الشبوكي، الديوان ،116.
[3] ، أحمد سحنون، الديوان ،83 .

قلت لــه: بالحزم لا بالمنى قد أدرك الناس المرام البعيد.

ومن صور تلك العلاقات الحميمة التي قامت بين نزلاء السجون والمعتقلات ، المساجلات والمحاورات التي اتخذت القصيدة وسيلة لتخليد تلك الحياة، وقد كان الشاعر محمد الشبوكي محاورا بارزا ومسجلا وفيا لبعض المواقف، وكانت له محاورات لطيفة تجاوز فيها الشاعر ورفاقه آلام السجن الجسدية والنفسية إلى فضاء العلاقات الإنسانية السامية، حتى ليتبادر للمطلع عليها لأول وهلة أنها سجلت في مجالس أنس وجّنان، ففي معتقل الجرف كان العازف على أوتار العود رشيد يساهم في إضفاء أجواء من البهجة ويخفف عن الرفاق آلام الحبس وغربته، وفي ذلك يقول محمد الشبوكي:.

نقرات العود من كفّ رشيد تبعث النشوة في القلب العميد
قلت والأوتار في أنمـله تتشاكى جفوة الدهر العنيد
أيها الفنان زدني إننـــي لأنين العود ذو شوق شديد[1]

ولما قرأ العازف هذه الأبيات اقترح عليه أن ينشد شعرا في عوده، فاستجاب لطلبه عن طيب خاطر وأنشد:

يــا عــود ردد أغاني وألــحاني فالشوق برح بي والبين أشجاني
وفي فؤادي حنيـــــن لا يفارقني إلى معاهــد أحبــابي وخلاني
ضمّد جروح سهام الوجد في كبدي يا خلّ ظلّ مدى الأيام يرعاني.
فإن تك المزعجات السود تعصف بي فأنت يا عود بالسلوان تلقاني[2].

وفي معتقل لودي (قرب المدية) يسمع محمد الشبوكي عند زميله مسعود زيتوني شريطا لإحدى أغاني المطربة اللبنانية فيروز، وذات مساء آخر يدخل عليه ويسأله مداعبا "أين فيروز" ثم ينشد ارتجالا قطعته الشعرية "أين فيروز":

---

[1] - محمد الشبوكي:الديوان ،201.

[2] - المرجع نفسه والصفحة نفسها .

أيــن فيـروز يـــا رفيقـــي فإني لأغاريدها أذوب اشتياقا
كم سبتني بصوتها في ربى الوادي وكم لذّ شدوها لي وراقا
إن فيروز نجمـــة في سما الفـــن تراءت فأشرقت إشراقا[1].

وفي المعتقل نفسه سجل قصيدة أخرى في المطربة العربية"نجاح سلام"بعد سماعه شريطا غنائيا لها[2].

ونختم حديثنا عن حميمية علاقات الجوار التي بين نزلاء السجون والمعتقلات بقصيدة لمحمد قنانش يصف فيها حادثة إعدام سجين مجرم من رفاق الحياة البربروسية قام بواجب الجوار وذرف على مصرعه عبرة مواساة وإشفاق، وختم قصيدته بحكمة رائعة وانتقاد لسياسة المستعمر الذي أعدم هذا السجين مقابل روح أزهقها إرضاء للمعمرين و نسي أن يعدم نفسه ويطبق عليها ذلك القانون "النفس بالنفس" فهو لم يقتل نفسًا واحدة بل قتل أمما وجزاء القتل القتل لو كانوا عادلين، يقول:

كان بالأمس فأضحى عدما وهوى هيكله منهدما
واعتلى مقصلة الإعدام لا وجلا منها ولا منهزما
تخذو موتته سلوى لهم أو كما يتخذون السينما
حملوه جثة هامدة حيث لا يشكو الأذى والألما
سار من غير بكاء للثرى أو عويل كي يذيع المأثما
من معاني العدل في الأرض الردى ومن العلم ضلال وعمى
يقتلون النفس بالنفس ولا حرج إذ يقتلون الأمما
فارقبوا مقصلة الله غدا يجتزي المظلوم ممن ظلما[3].

---

[1] - محمد الشبوكي، الديوان ، 190.

[2] -محمد الشبوكي، الديوان –191.

[3] - يحي الشيخ صالح ، أدب السجون والمنافي، ص151،152.

وهكذا يلتحم تعاطف الشاعر وعواطفه الإنسانية تجاه السجين المعدم بمشاعره الوطنية التي لا تغادره أبدا، لأن الاستقلال كان قضيته الكبرى التي ظل من أجلها يقارع المستعمر النار بالنار والحجة بالحجة.

- مشاركة الشاعر الوجدانية في حركة الحياة خارج السجن:

أرادت آلة المستعمر إبعاد مثقفي الجزائر ومفكريها ومناضليها عن مسار الحياة، فزجت بهم في سجونها ومعتقلاتها التي ضاقت بهم، وسلطت عليهم كلّ أنواع العذاب ظنا منها أنها تستطيع عزلهم عن الاتصال بالمجتمع عموما، وبفرسان جبهة التحرير الوطني خصوصا، ولكن لا الجدر العالية ولا زبانية العذاب وفنونه استطاعت أن تعزل القابعين هناك عن متابعة الحياة بأدق تفاصيلها خارج السجن والمشاركة فيها. فقد فتح المخلصون منافذ يطلّون منها على مآسي الشعب التي لا تختلف عن مآسيهم وإن اختلفت التسميات وتعددت، ويشاركونه همومه وانشغالاته.

وإذا كان من معاني السجن عند البعض توقف عقارب الزمن عن النبض، وإن اختلطت المواقيت عند جل المساجين وغاب في ظلمات السجن وغياهبه مفهوم التأريخ للزمن لتطاوله حدّ السأم من جهة ، وتشابه ساعاته حتى أن بعضهم لم يعد يفرق بين الليل والنهار لتواصل الظلمة بالظلمة، فإن سجين القضية لم يغفل عن متابعة الحياة خارج الجبّ، وراح يصنع لنفسه عالما ويفتك الحياة من مخالب الظلم والظلام، ويعيش مع شعبه كل أيامه وذكرياته وأعياده ويقاسمه همومه ومآسيه، ويمد إلى العالم الخارجي جسورا مادية ووجدانية متينة، مستعينا في ذلك ببعض سدنة السجن الذين اقتنعوا من الداخل بعدالة القضية الجزائرية ومشروعيتها وتحوّلوا إلى رسل بين السجين والعالم الخارجي حينا، وبين السجناء أنفسهم حينا آخر، إذا تباعدت الزنازين.

وهكذا تفشل آلة المستعمر مرة أخرى ودائما في محاولتها بتر الشعب عن أمته العربية والإسلامية وسائر شعوب العالم وفي محاولتها عزل الثورة عن الشعب.

فكان السجين في زنزانته الانفرادية ومعتقله وكان المجاهد في كهوفه ومغاراته يتابعون أحداث الوطن والأمة والعالم كلّه ويشاركون في صناعة الحدث بكل ما أوتوا.

وكثيرا ما أحيا السجناء الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية بين حيطان السجن وأبوابه الموصدة، ومن الشعراء الذين التفتوا إلى المناسبات الدينية خاصة الشاعران أحمد سحنون و محمد الشبوكي .

صادف أن اجتمعت وذكرى المولد النبوي الشريف ذكرى أخرى جليلة، عزيزة على الشاعر، هي ذكرى ميلاد الحكومة الجزائرية المؤقتة فنظم الشيخ أحمد سحنون قصيدته "ميلاد وميلاد،يقول:

يا للرجاء المنعش الأرواح ... يدنو جناه بعد طول كفاح
اليوم ميلاد النبي محمد ... من جاء رمز هداية وصلاح
واليوم تولد للجزائر دولة ... عربية من أهلها الأقحاح
قل للألى حكموا بلادك بالهوى ... من كل سفاك الدما سفاح
راموا لشعب باسل إدماجه ... فبدا كطود في مهبّ رياح!
إن الجزائر لا تخاف سلاحكم ... فلها من الإيمان خير سلاح
ولها شباب صادق العزمات ذو ... نسب عريق في الأباة صراح!
لا يفزعون لدى الحروب من الردى ... فكأنهم خلقوا بلا أرواح[1].

[1]- أحمد سحنون، الديوان، 89،90 .

ويسجل قصيدة في العيد وأخرى في المولد النبوي الشريف وثالثة في رأس السنة الهجرية، وأخرى في ذكرى نزول القرآن الكريم... وفي العام الجديد.[1]

ولمحمد الشبوكي التفاتة إلى العيد (عام 1958) وإلى هلال رمضان (لعامي 1959 و1961)[2] وغيرهما من المناسبات.

وكانت لكل الشعراء مشاركات وجدانية للعمال في حركاتهم المناهضة للاستغلال فقد حيوهم جميعا وشدّوا على أياديهم من قعر السجن، نظم في ذلك المرحوم أحمد عروة والشاعر أحمد سحنون[3]. وخط مفدي زكريا بسجن بربروس (12 جويلية 1956، بزنزانته رقم 69) النشيد الرسمي للاتحاد العام للشغالين الجزائريين.

نحن جند الاتحاد والعمل ننجز الاشغال لا نرضى الكسل

نعقد العزم لتحقيق الأمل نرفع الراية ما بين الدول

نفتل السواعدا..... نحمل الشدائدا..... نبلغ المقاصدا.....

لا نكلُّ.....لا نملُ

في الجزائر.....

وإن غلبت على كل من محمد الشوكي وأحمد سحنون العاطفة الدينية فإن مشاعر مفدي زكريا كانت وطنية متدفقة ثائرة فلم يكد يغفل ذكرى من ذكريات الثورة أو قضية من قضاياها إلاّ وصبّ جام غضبه على فرنسا، فكان فارس المناسبات الوطنية دون منازع.

---

[1] - المصدر نفسه، ص 121،122،215،203.

[2] -المصدر نفسه، ص53،43،54.

[3] -انظر: ذكريوبشرى، 18، 25، وديوان أحمد سحنون، 310 واللهب المقدس ،100 .

ولأن ثورة التحرير الكبرى كانت آنذاك –ولا تزال- أبرز حدث عرفته الجزائر وأكبره فقد غدا الفاتح من شهر نوفمبر عيدا يحتفل فيه الشعب الجزائري بذكرى تلك الهزة التي زلزلت كيان المستعمر، ففي ذكراها الثالثة ومن سجن البرواقية عاش الشاعر الحدث وخلده بقصيدة شبه فيها تلك الليلة بليلة القدر التي تغير بفضلها وجه التاريخ، كيف لا وهي تتنزل على العدو شهبا قاصفة وتتحدّر عليه شظايا ملتهبة، وتهوي عليه ملائك فاتكات مرسلات، ينصبّ معها الشعب على العدوّ انصبابا، هي ليلة تنزّل روحها بأحرار الجزائر، ويتآزر فيها المدّ الإلهي بالمدّ الشعبي واستجابته المنقطعة النظير، فكانت حربا للكرامة أرسل فيها الشعب رسولا جديدا لافتكاك العزّة ومحاورا لم يخطر لفرنسا على بال، لأنه يحسن جدال الغاصبين ويملك سبل إقناعهم بل وإرغامهم على الانصياع لمطالبه، إنه الرصاص والقنابل التي أيقظت وأسمعت وأقنعت بلغتها الفريدة، وقد وجدت القصيدة طريقها إلى الحرية قبل صاحبها ووصلت إلى قيادات جبهة التحرير وألقيت بالنيابة عن مفدي في مهرجان الذكرى الذي أقيم بتونس غرة نوفمبر 1957، يقول:

دعا التاريخ ليلك فاستجاب (نفمبر!) هل وفيت لنا النصابا؟
وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليلة القدر الجوابا؟
زكت وثباته عن ألف شهر قضاها الشعب، يلتحق السرابا
وهزت "ثورة التحرير" شعبا فهبّ الشعب ينصبُّ انصبابا
وقال الله: كن يا شعب حربا على من ظلّ لا يرعى جنابا!
وقال الشعب: كن يا ربّ عونا على من بات لا يخشى عقابا!
فكان وكان، من شعب، وربّ قرارٌ أحدث العجبَ العجابا!
جهاد دوّخ الدنيا وألقى (هنالك) في سياستها اضطرابا
وزلزل من صياصيها فرنسا وأوقع في حكومتها انقلابا

وأوفدت الرصاص ينوب عنها يناقش غاصب الحق الحسابا[1]

فقد كان البترول المتفجر من عمق الصحراء من المؤذنات الكثر على الجهاد، ليتذكر الشاعر الصحراء وما تخبئه بين حناياها من جنان هي أشبه بجنات عدن، لينساب في وصف مفاتنها وتعداد خيراتها وكنوزها التي يطارد الشعب عن مواقعها الغرابا، ففي واحاتها الذهبان "التبر والتمر" وفيها، "الشعر والسحر" وفيها "الأدب والعلم..." ليعود إلى منهاجه الذي رسمه في أغلب قصائده وهو قضية الجزائر الكبرى ومحاججة المستعمر وتفنيد مزاعمه، منها ذلك الزعم القائل بأن الأجانب سيلاقون فيها عذابا إن هي استقلت، وللزاعم أن يسأل التاريخ والكتب عن الشعب الجزائري العادل إذا حكم، الصادق إذا نطق، الشريف العاقل اللبيب الكريم المحترم كل بيوت الله، فيدعو الكرام أن يطيبوا بها مقاما ويحذّر الماكرين، ويوجه رسالته إلى المجلس الدولي طالبا حكما صريحا وليس عتابا، ولن يقبلوا بغير الحرية الكاملة، لأنهم بكفاحهم أصبحوا منها قاب قوسين أو أدنى:

فقل للنازلين بها أقيموا كراما، واعملوا، تجدوا الثوابا
و قل للماكرين بها استريحوا فمن يمكر بها ، يلق الخرابا
و قل للمجلس الدولي إنا نريد لديك (حكما)، لا عتابا
وإنا أمة للمجد قامت على الأشلاء، وامتلأت شبابا.
وجئنا بالخوارق، معجزات فلم نترك لناكرنا ارتيابا
وخضناها (ثلاث سنين) دأبا فأصبحنا من التحرير، قابا
فلا نرضى مساومة وغَبْنًا ولا نرضى لسلطتنا اقتضابا
ولن نرضى شريكا في حِمانا ولو قُسمت لنا الدنيا منابا...![2]

---

[1] -مفدي زكريا، اللهب المقدس، 30،33.

[2] - مفدي زكريا، اللهب المقدس، 40،41.

وبقعر الزنزانة رقم 357 بسجن البرواقية يتفجر الشاعر باحتفالية أخرى بالذكرى الرابعة للثورة الجزائرية وألقيت بالنيابة عنه في "صوت العرب" بالقاهرة (1958م) "اقرأ كتابك" يدعو فيها إلى وقفة لتحية المدفع الذي خط سطوره في سبيل الحرية، ونشط ندواته السلاح إذ قام فيها خطيبا مفوهًا يجادل العدوّ ويقارعه ليس في الجزائر فحسب بل في كل البلاد العربية وعلى رأسها أرض الكنانة:

هذا (نفمبر) قم! وحي المدفعا ... واذكر جهادك والسنين الأربعا
إن الجزائر قطعة قدسية ... في الكون لحنها الرصاص ووقّعا!
وقصيدة أزلية أبياتها ... حمراء، كان لها نفمبر مطلعا!
شعب دعاه إلى الخلاص بناته ... فانضب مُذْ سمع النّدا وتطوّعا
نادى به جبريل في سوق الفدا ... فشرى وباع بنقدها وتبرّعا
وأراده المستعمرون عناصرا ... فأبى مع التاريخ أن يتصدّعا
واستدرجوه فدبّروا إدماجه ... فأبت عروبته له أن يُبلعاَ
تلك الجزائر...تصنع استقلالها ... تخذت له مهجَ الضحايا مصنعا
وإذا السياسة لم تفوّض أمرها ... للنار كانت خدعة وتصنُّعا
خبّر فرنسا يا زمان بأننا ... هيهات في استقلالنا أن نخدعا[1].

ولما خذلت المنظمة الدولية في دورتها 13 القضية الجزائرية نظم مفدي قصيدته و"تعطلت لغة الكلام" بسجن بربروس (بالقاعة التاسعة) ، و أعلن فيها عجز لغة الكلام و الحوار ، لأنها اللغة الوحيدة التي يسمعها الآخر ليس فرنسا فحسب بل الغرب كلّه هي لغة الرصاص. وهي محاكمة عادلة ومنطقية للهيئة من خلال الشرائع والقوانين التي استنتها ولا تطبق منها إلاّ ما يخدم مصالحها، لذلك وجب أن تتعطل لغة الكلام والحوار والموائد المستديرة لينوب عنها الناطق الوحيد المسموع الصوت المطاع، فليس هناك أصدق لهجة من صوته

[1] - المصدر نفسه،57،67.

وليس هناك أقوى بيانا من حروف خطها الرصاص وسطرت النار حُجّتها وبرهانها، ولتكتب الأمم المتحدة والمنظمات الدولية ولتصنع ما شاءت من قوانين، ولتقم ما شاءت من المؤتمرات والندوات والموائد المستديرة فلا جواب لصحائفها إلاّ صفائح الحرب ولا ردّ على خطوّط حبرهم إلاّ دويُ الحرب، وقد تلاعب الشاعر في هذه القصيدة بالأضداد تلاعبا قويا جميلا يذكرنا ببائية أبي تمام في فتح عمورية، ولأن فرنسا ومن يقف وراءها في هذه المنظمات أصموا آذانهم وتعاموا عن حقوق الشعوب المظلومة فلن يبلغ مسامعهم إلاّ لغة القنابل ولن يزيح عن أعين حجبها إلاّ لوافح النيران فهي خير لوائح يجابه بها أمثال هؤلاء، فالحق والرشاش إن نطقا معا عنت الوجوه وخرّت الأصنام:

نطق الرصاص فما يباح كلام ... وجرى القصاص فما يتاح ملاما
وسعت فرنسا للقيامة وانطوى ... يوم النشور وجفّت الأقلام
هم حرروا الميثاق هلاّ حرروا ... أمما تسام حقارة وتضام؟؟
السيف أصدق لهجة من أحرف ... كتبت فكان بيانها الإبهام
إن الصحائف للصفائح أمرُها ... والحبرُ حرب والكلام كِلامُ
لغة القنابل في البيان فصيحة ... وضعت لمن في مسمعيه ضمام
والحق والرشاش إن نطقا معا ... عنت الوجوه وخرّت الأصنام
ما للجزائر ترجف الدنيا لها؟ ... والكون يقعد حولها ويقام
يا ثورة التحرير أنت رسالة ... أزلية إعجازها الإلهام
يا جبهة التحرير أنت رجاؤنا ... وعلى يديك إلى المصير زمام
شقي طريق الخالدين وسطري ... بدم الشهادة فالدماء قوام...[1]

وهي اللغة نفسها التي خاطب بها رئيس حكومة فرنسا "غي مولي" من قعر الزنزانة "69" عندما دعا إلى الانتخابات في شتاء (1958)، وتعد هذه القطعة الوحيدة بين حبسياته الملحمية المطوّلة:

[1] - مفدي زكريا، اللهب المقدس،42،52.

لاذ بالانتخاب مولي سفاها ... في بلاد تسيل فيها الدماء!
نحن نبغي استقلالنا...حرّفوه ... ما استطعتم إن صدّ عنه الحياء
لقبوه تكافلا وارتباطا ... ما عساها تهُمنا الأسماء
إن جهلتم طريقه فعليها ... لافتات حروفها حمراء
اعتراف فدولة فسلام ... فكلام فموعد فجلاء.[1]

وعلى الرغم من انشغال الشاعر بمتابعة أحداث الثورة، لم ينقطع عن مؤازرة الإخوان، من ذلك قصيدته (قل يا جمال) التي كتبها يوم الاعتداء الثلاثي على قنال السويس (29 أكتوبر 1956 بقعر الزنزانة 93 ببربروس) ولكن زبانيته عثروا عليها في عملية تفتيش فمزقوها وقادوه إلى زنزانة العذاب حيث قضى 20 يوما يجلد بالسياط صباح مساء ويعذب بالإشغال الشاقة والجوع، لم يذكر منها إلاّ الأبيات العشرة الأولى التي أتمها في الذكرى الخامسة للاعتداء:

قل يا جمال يردد قولك الهـــرم ... واحكم بما شئت تنجز حكمك الأمم
واصدع بأمرك فالثالوث يرهبـــه ... واخفق بثغر الحمى يخفق به العلم
وذد عن الحوض نصا بين ما فتئوا ... له يكيدون، لا تنهاهـــــم ذِمم
إرادة الشعب إن تصدق عزيمته ... إرادة الله، يجري باسمها القلم....[2]

تحدّي المستعمر:

أجمع كل الشعراء الذين زجت بهم فرنسا في غياهب سجونها على هوان أمرها وهوان كل ما سامتهم به من عذاب لأنه وإن عظم ضئيل أمام عظمة الحرية وجمال الاستقلال، فراحوا يتحدّونها ويرتفعون بالأبطال إلى مصاف القديسين والأطهار.

---

[1]- مفدي زكريا، اللهب المقدس، 53،54.

[2] - مفدي زكريا، اللهب المقدس، 299،300.

ولعل من أبشع صور العذاب النفسي والجسدي التي ابتدعها المستعمر مشهد الإعدام الذي هو عذاب جسدي ونفسي للمحكوم عليهم بالإعدام وعذاب نفسي قاتل لرفاق السجن وسنكتفي لذلك بمشهد عاشه مفدي زكريا وجسّده بآلامه وخلّد أيضا عظمته وجلاله في قصيدته "الذبيح الصاعد" (بسجن بربروس في القاعة 9 –في الهزيع الثاني من الليل أثناء تنفيذ حكم الإعدام على أول شهيد دشن المقصلة المرحوم أحمد زبانا ليلة 18 جويلية 1955)، يرتفع فيها بالشهيد إلى مصاف القديسين ومدارج الأنبياء والأطهار، ومقابل ذلك يستهزئ بكل آلات العذاب وأساليبه، ها هو زبانا في مخيلة الشاعر القابع في إحدى زنازين العذاب يتقدم إلى المقصلة في وقار كالمسيح يرتل الأناشيد، باسم الثغر كالملاك، شامخا رافع الرأس لأنه يتقدم نحو جنان الخلد، وتتراءى للشاعر سلاسل الحديد في قدمي الشهيد خلاخلا تملأ بزغاريدها الفضاء، ويتسامى زبانا كالروح (جبريل) في ليلة هي أشبه بليلة القدر لأنها ستغمر الكون بأنوار الفداء، ويتقدم زبانا ويعرج ممتطيا مذبح البطولة إلى جنان الخلد، راجيا المزيد، وعلى لسانه يهزأ الشاعر من تلك المقصلة الجائرة وتلك القيود الزائفة لأنها لم تصب إلاّ الأجساد الزائلة التي إن لم تبدها المقصلة أدركها الموت، فما المشانق وما السلاسل وما القيود وما المقاصل إن عاش بفضلها الشعب سعيدا، إنها مجرد قربان بسيط لبناء مجد الجزائر وهرم الحرية، وليكن رأس زبانا أول لبنة فيه:

قام يختال كالمسيح وئيدا ... يتهادى نشوان يتلو النشيدا
باسم الثغر كالملائك، أو كالط ... فل يستقبل الصباح الجديدا
رافلا في خلاخل زغردت تملأ ... من لحنها الفضاء البعيدا
حالما كالكليم كلّمه المجـــد ... فشدّ الحبال يبغي الصعودا
وتسامى كالروح في ليلة القدر ... سلاما يشعُ في الكون عيدا
"اشنقوني فلست أخشى حبالا ... واصلبوني فلست أخشى حديدا"
وامتثل سافرا محياك جـــلاّ ... دي و لا تلتثم فلست حقودا

واقض يا موت في ما أنت قاض أنا راضٍ إن عاش شعبي سعيدا
أنا إن مت فالجزائر تحيـــــا حرّة مستقلة لن تبيـــــدا[1].

وفي غمرة هذا التصاعد والتسامي ينقلنا الشاعر إلى فضاء الثورة الكبرى وكيف تحالفت فيها الإرادة الإلهية وإرادة الشعب، فهذه الجبال الرهيبة الشامخة وتلك الشعاب الممتنعة هيأها المولى عزّ وجلّ وأعدّها لساحات الوغى أخدودا...

وذلك الشعب دفعته إرادة الله وحمت ألويته... فمضى يبني بالجماجم أمّة حرّة ويفتك النصر من أنياب الموت، ليختم القصيدة برسالة واضحة إلى فرنسا ضمنها صرخة الشعب الذي ملّ الوعود الكاذبات:

ثورة تملأ العوالم رعبا وجهاد يذرو الطغاة حصيدا
من جبال رهيبة شامخات قد رفعنا على ذراها البنودا
وشعاب ممنّعات براها مبدع الكون للوغى أخدودا
وجيوش مضت يد الله تز جيها وتحمي لواءها المعقودا
يا سماء اصعقي الجبان، ويا أرض ابلعي القانع الخنوع البليدا
يا فرنسا كفي خداعا فإنا يا فرنسا، لقد مللنا الوعودا
سكت الناطقون وانطلق الرشا ش يلقي إليك قولا مفيدا
"نحن ثرنا فلات حين رجوع أو ننال استقلالنا المنشودا"

ليختم القصيدة برسالة:

يا فرنسا امطري حديدا ونارا واملئي الأرض والسماء جنودا
واحشري في غياهب السجن شعبا سيم خسفا فعاد شعبا عنيدا
كل من في البلاد أضحى "زبانا" وتمنّى بأن يموت شهيدا...[2]

---

[1] - المصدر نفسه، 9،10.

[2] - مفدي زكريا، اللهب المقدس،12،19.

وفي ذلك السجن الذي نشأت بينه وبين مفدي زكريا علاقة حميمية يسجل إحدى روائعه التي نختم بها رحلتنا في غياهب السجون وماجادت به القرائح هناك ، ولنقل إحدى الغزليات الخالدة في محراب الضحايا وعرين الأسود ودرب الخلود ومصنع الأمجاد، وفوق هذا هو مهبط الوحي والإلهام للقصائد الخوالد ومنتدى الأحرار وموطن لقاءاتهم الحرة، إنه المعبد الذي طالما رتلت فيه عهود الوفاء[1] وإن سجلها الشاعر خارج جدرانه:

يا ليل خيم واعصفي يا رياح يا أفق دمدم و اقصفي يا رعود
يا دم شرشر وانحني يا جراح يا غلّ صرصر واحدقي يا قيود
يا سجن ازخر بجنود الكفاح فأنت يا سجن طريق الخلـــود

أنت محراب الضحايا/في حناياك الأسود/ أنت...أنت...أنت...يا بربروس.....[2]

وكفى بربروس فخرا وكفاه قدرا أن ولد بين أحضانه النشيد الرسمي للثورة الجزائرية في 25 أفريل 1955 من أعماق زنزانة العذاب رقم 69؛ لتتبناه القيادة ويتحوّل إلى نشيد وطني يرتفع صداه في المحافل والمنابر الدولية.

وإن افتقدت هذه النماذج الشعرية إلى كثير من الملامح الفنية والقيم الجمالية المعروفة -باستثناء قصائد مفدي زكريا-، فعذرها أنها تنتمي إلى بواكير الحركة الأدبية في بلد أراد المستعمر طمس هويته، وأبى هؤلاء الشعراء إلا العودة به إلى أحضان العروبة والإسلام. و كفاها أنها حملت لواء النضال وساهمت في بعث الوعي الوطني في مرحلة من تاريخ الأدب العربي كان النضال من أهم أولوياتها وأمدت الثورة بكل ما تملكه الكلمة من حماس وقدرة على الحشد و الإقناع بل ودحر الخصم وإسكاته.

---

[1]- المصدر نفسه،88.

[2] -المصدر نفسه،91.